أصول المدرسة النظامية في بغداد

● **الحاجة إلى نموذج يحتذى :**

أربع مئة عام مرت منذ أن بعث الله محمدا ﷺ دون أن تظهر على امتداد الإمبراطورية الإسلامية الكبرى كلها أية مؤسسات تربوية عامة ، وكان الأساتذة بدافع ذاتى يعلمون التلاميذ فى المساجد ، والبيوت ، والحقول ، كما وأين ، ومتى أحبوا ، ووقع ذلك من خاطرهم موقع الرضا ، باتفاق خاص تماما ، وفى حرية كاملة ، فى كل ما يتصل بالدراسة ، فى مشرق الإسلام ومغربه على السواء .

وظل هذا النظام قائما فى الغرب الإسلامى ، ودون أى تنظيم رسمى للتعليم طوال سبعة قرون ، على نحو ما مضى فى دراستنا للتعليم بين الإسبان المسلمين ، ولكن هناك ، فى المشرق ، حول منتصف القرن الخامس الهجرى ، وفى بلاط بنى العباس نفسه ، انبثق نظام جديد فى شكل جامعة أو كلية ، وبفضلها تغير نظام التعليم جذريا فى كل البلاد الإسلامية ، وأعنى بها **المدرسة النظامية فى بغداد** ، وكانت الأب والنموذج المحتذى الذى أقيمت على صورته ، وتشبها به ، كل الكليات التى لا تحصى عددا ، وغزت الشرق والغرب كليهما .

ولكن ... هل كانت المدرسة النظامية فى بغداد ، وعنها تولدت حركة المؤسسات التربوية العامة فى الإسلام ، هى الأولى حتى هذا التاريخ ؟ .

الحق أن البريق المتوهج يعشى البصر ، وأن الزهو والخيلاء تعميه عن الحقيقة ، وما يجىء الأول تاريخا يذهب بالجانب الأكبر أهمية ونبلا وعتاقة ، ونخصه بالمزيد من أشواقنا العقلية ، ولقد كانت الجامعات ذات الدرجة الثانية ، فى أوربا المسيحية ، تشرق وتزهو بأنها قامت وتشكلت على نمط جامعة باريس أو بولونيا[1] ، أو أكسفورد ، ومع ذلك ، فإلى جوارها جامعات أخرى تؤثر أن ترد مولدها إلى حركة نشأت عفويا ،

(١) عاصمة مقاطعة كبيرة فى شمال إيطاليا . « المترجم » .

أووليدة تطور داخلى ، وأنها بريئة من أى تأثير خارجى ، ولعله يمكن القول بأن ما يتصل بجامعة باريس كان أصيلا تماما .

وقد حدثت الظاهرة فى نطاق الحضارة العربية ، وهم يعترفون بأن كل المدارس التى ظهرت فى العالم الإسلامى جاءت تالية للمدرسة النظامية ، تولدت عنها ، وجاءت صورة مشابهة لها ، سواء تلك التى أقيمت فى أقصىَ الشرق على حدود الهند أو بنيت غربا فى أقصى الصحراء ، ولا يقف المؤرخون المسلمون فيما يتصل بالمدرسة النظامية عند هذا الحد ، وإنما يقولون أيضا أنها لم تكن الأولى فى نوعها فحسب ، وإنما أيضا فى طرازها ونموذجها ، والأولى فى ظهورها زمنا .

ويحصر المؤرخون المسلمون تفسيرهم لنشأتها فى رواية واحدة ، دون أن يعيروا التفاتا إلى العديد من المشكلات التى تحيط بهذا الموضوع البسيط عند إلقاء النظرة الأولى عليه ، ويكفى أن نعير انتباها لرواية شاهد ثقة ، وأعنى به **أبا بكر الطرطوشى**[1] ، وهو يحدثنا عن قصة مولد المدرسة النظامية ، فى كتابة **سراج الملوك** يقول :

« ومن مناقب هذا الرجل وفضائله (يتحدث عن الوزير نظام الملك) أن رجلا قصده يقال له **أبو سعيد الصوفى** ، فقال له : يا خواجا ، أنا أبنى لك مدرسة **ببغداد مدينة السلام** ، لا يكون فى معمور الأرض مثلها ، يخلد بها ذكرك إلى أن تقوم الساعة ، قال : افعل . وكتب إلى وكلائه ببغداد أن يمكنوه من الأموال ، فابتاع بقعة على شاطئ دجلة ، وخط المدرسة النظامية وبناها أحسن بنيان ، وكتب عليها اسم **نظام الملك** ، وبنى حولها أسواقا تكون محبسة عليها ، وابتاع ضياعا وخانات وحمامات ، وأوقفت عليها ، فكملت لنظام الملك بذلك رياسة وسؤدد ، وذكر جميل طبق الأرض خبره ، وعم المشارق والمغارب أثره ، وكان ذلك فى سنى عشر الخمسين وأربعمائة للهجرة »[2] .

---

(١) هذا الكاتب والمؤرخ السياسى الإسبانى ولد فى طرطوشة علم ٤٥١هـ تقريبا ، وذهب إلى المشرق عام ٤٧٦هـ ، أى بعد عشرين أو خمسة وعشرين سنة من إنشاء المدرسة النظامية وتلقى العلم على الأساتذة الذين كانوا يتولون التدريس فى للمدرسة النظامية . انظر :

- ابن خلكان ، جـ ٢ ص ٢٧٣ ، طبعة القاهرة .
- ابن بشكوال ، الترجمة ١١٣٥ طبعة مدريد .

وكذلك الضبى فى تاريخ علماء الأندلس وغيرهم .

(٢) الطرطوشى ، سراج الملوك ، ص ١٢٨ – ١٢٩ ، طبعة بولاق .

والرواية على هذا النحو البالغ البساطة تعنى أن تأسيس المدرسة النظامية جاء خاطرا سعيدا ، عابرا وأصيلا ، من ولى مسلم واسع الشهرة .

نحن على استعداد لأن نصدق أن الحادث وقع كما رواه أبو بكر الطرطوشى، وكان نفسه وليا، وتوفى يعبق بأريج الولاية فى مدينة **الإسكندرية** ، لأننا لا نشك أبدا فى تدخل أبو سعيد الصوفى لدى الوزير نظام الملك فى الأمر مباشرة ، ولكننا نرفض القوة الابتكارية لشيخ الطريقة الصوفية الإسلامية ، ولا نظن أن الفكرة طافت بخاطر الوزير الفارسى للسلطان التركى أرسلان فجأة على هذا النحو ، دون سوابق عرضت له ، لأن نظاما معقدا كالمدرسة النظامية لا يمكن أن يخترعه رجل واحد ، دفعة واحدة ، فى أى مكان من الأرض .

وأخذت أهبتى لدراسة أصل المدرسة النظامية ، وبدا لى أن تتبع خطوات قيام المؤسسات السابقة لها ، التى تفسر نشأتها ، ليس أمرا سهلا ، لأن المؤرخين المسلمين عندما يصلون إلى هذه النقطة تتوقف بهم المسيرة فى أى اتجاه ، وتتقطع الخطوط بين أيديهم ، وفضلا عن ذلك ، أعتقد أنه يحدث فى المؤسسات ما يحدث للأسر النبيلة ، فمن السهل جدا دراسة الشخصية التاريخية التى تلقى التمجيد والإكبار لعراقة أسرتها ، فإذا مضينا بالأمر والتقينا بالغموض يلف الأسرة ، اضطررنا للبحث عنها فى أحشاء الأرض .

وفيما يتصل بالمدرسة النظامية ليس بين يدى آثار ظاهرة أسير على خطاها ، فكان علىّ أن أستعين بالفروض المؤقتة ، التى يمكن أن توجهنى إلى بعض الطرق ، وسألت نفسى : هل تولدت المدرسة النظامية عن بعض المؤسسات الإسلامية التقليدية التى كانت قائمة فى عاصمة الإسلام نفسها ؟ . ولم أجد فى هذا الطريق أى شىء تقريبا يمكن أن يعيننى على حل المشكلة ، ولقد كان الرحالة **المقدسى فى بغداد** نفسها لبعض الوقت قبل مولد المدرسة النظامية ، ووصف لنا عاصمة خلفاء بنى العباس قديما ، وهى فى هوة الانحطاط ، مسجدها الجامع تهاوى ، وسور المدينة أصبح أنقاضا ، يقول : « ضعف أمر الخلفاء فاختلت وخف أهلها ، فأما المدينة فخراب ، والجامع فيها يعمر فى الجمع ، ثم يتخللها بعد ذلك الخراب ، وأعمر موضع بها قطيعة الربيع والكرخ فى الجانب الغربى ، وفى الشرقى بال الطاق ، وموضع دار الأمير والعمارات ، والأسواق بالغربى ، والجسر عند باب الطاق إلى جانبه بيمرستان بناه عضد الدولة ، حصل فى كل طسوج

مما ذكرنا جامع ، وهى فى كل يوم إلى وراء ، وأخشى أنها تعود كسامراء ، مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان »[1] .

وكان التعليم فى عاصمة الخلافة يمضى منحدرا ، ليصبح بقايا شاهدة فحسب ، كأطلال المدينة نفسها ، ولكن العادات القديمة لم تتغير جذريا ، فواصل كبار أساتذة بغداد إلقاء دروسهم ، كما كان عليه الحال قبلا فى قرون خلت ، وكان **أبو حامد الإسفرائينى** شيخ الشافعية يلقى دروسه على الطلاب فى مسجد عبد الله بن المبارك بحى الفقهاء ، ويحضر مجلسه ما بين ثلاث مئة وسبع مئة طالب .

أيمكن أن يكون قد أوحى بشكل المدرسة النظامية ما كان يصنعه أستاذ آخر فى بغداد ينتمى إلى المذهب الحنفى ، فقد كان يلقى دروسه على الطلاب راحة لهم ، وإراحة لنفسه ، فى فندق عام حيث يعيشون ، وهو خان أتت عليه النيران فى إحدى الفتن التى حدثت عام ٤٤٣هـ ، قبل افتتاح المدرسة النظامية بخمسة عشر عاما تقريبا ؟ ، ولكن اجتماع الطلاب حول أستاذهم فى فندق عام ، كان يعنى بالضرورة أنها مؤسسة عامة لمن يحضر ، وخاصة لأنها مستقلة عن الدولة ، وليس ثمة شىء على الإطلاق يدفع بنا إلى الظن أنها كانت تحمل شيئا من الملامح المعقدة ، أو المظاهر المحددة ، التى كانت عليها المدرسة النظامية الشهيرة[2] .

وفضلا عن ذلك كله ، إذا قلنا إن بغداد عرفت مؤسسات تشبه المدرسة النظامية وتسبقها ، أبقى عليها الأحناف . أما كان المؤرخون يمسكون بهذه المعلومة ويشيرون إليها ، ويلمحون إلى أن الأحناف سبقوا بها النظامية ، وقد أقيمت هذه لصالح الشافعية ؟ . وباختصار لم يكن يلاحظ فى بغداد حينئذ أية حركة تومىء إلى حياة جديدة ، وإنما أطلال الماضى وأشباحه فحسب ، وليقل المؤرخون ما يشاءون ، فليس حقا أن إنشاء المدرسة النظامية كان عملا عفويا .

يقول **المقدسى** فى النص الذى أشرنا إليه من قبل : « **الفسطاط** ناسخ بغداد ، ومفخر الإسلام ، ومتجر الأنام ، وأجل من مدينة السلام » . وهذه الجملة دفعت فى أعماقى بفكرة البحث عن أصل المدرسة النظامية فى اتجاه آخر ، دون الوقوف عند تفسيره

---

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ١٢٠ ، طبعة دى خويه .

(٢) ابن الأثير ٣٩٣/٩ .

بالحركة التطورية للمؤسسات التقليدية فحسب . وساءلت نفسى : هل كانت المدرسة النظامية تقليدا أو محاكاة لمدرسة مصرية ما قامت بدافع من الاتجاهات السياسية الجديدة للفاطميين فى مصر ، الأرض التى ظلت تحفظ بذكرى مدرسة الإسكندرية الشهيرة حية فى أعماقها ؟ وفيها تجلى إعجاب المسلمين دائما بأضخم ما حفظ التاريخ من آثار الماضى ، وتغلى فيها خمائر فرق عديدة غير سنية ، وتختلط فى تعاليمها العقائد المختلفة من الحضارات القديمة ؟

● دور مصر الفاطمية :

وفى البدء بدا لى أننى عندما أخذت هذه الوجهة فى البحث لم أحد عن الطريق الصحيح ، ذلك أن الجذور التى أمسكت بالثروة والثقافة فى المقاطعات العراقية ، ولمعت بغداد وسط حلاها فى أزمنة سلفت ، أخذت تتجه حينئذ إلى عواصم سياسية أخرى اغتصبت سلطة الخلافة : الفسطاط فى مصر ، ونيسابور فى فارس .

كان المقدسى يدعو أقليم مصر قبة الإسلام ، « عاد فيه حضرة أمير المؤمنين ، ونسخ بغداد إلى يوم الدين ، وصار مصيره أكبر مفاخر المسلمين »[1] ، تمتلىء مساجدها بالشباب ، يفيضون حماسة للدرس ، ويقبلون على دراسة علم جديد يختلط فيه تراث كل الشعوب القديمة ، ينبض حياة وحيوية ، وربما فسر نشأة المؤسسات التى عرفها الشرق الإسلامى . والحق أن نهاية القرن الرابع الهجرى ، ومطلع القرن الخامس ، وقبل أن توجد المدرسة النظامية فى بغداد بستين عاما ، نشأت فى القاهرة مدارس لها طابع أكثر شبها بتلك المدرسة التى نبحث عن أصولها وندرس نشأتها الآن .

يومها ، كان يحكم الإمبراطورية الفاطمية الواسعة أشد الحيوانات غرابة فى طبقة الطغاة الذين عرفهم العالم ، وأعنى به الحاكم بأمر الله ، لقد تولى الخلافة حدثا فى الحادية عشرة من عمره ، وعندما أصبح رجلا وضح الجانب المرعب فى شخصيته ، كان ذا عينين زرقاوين واسعتين ، جهورى الصوت ، صاخب الحركة ، كثير الطموح والأهواء ، متقلبا قاسيا ، زنديقا يؤمن بالخرافات ، حيوانا إنسانيا متوحشا ، ضحى إرضاء لأهوائه العارضة بحياة أكثر من ثمانية عشر ألفا من رعاياه ، ولم يحل ذلك قيام جانب من الشعب الذى تحمل هذه المظالم بعبادته إلها على امتداد عشرات الأعوام . [وأوجز المقريزى حالته

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٣ .

هذه ، يقول : « إنه كان يعتريه جفاف فى دماغه ، ولذلك كثر تناقضه ، وكانت أفعاله لا تعلل ، وأحلامه وسياسته لا تؤول »] .

وللحكم على موقفه السياسى يكفى أن نذكر لذلك مثالين : الأول أنه كان يدعى علم الغيب ، يدفع بعضا من توابعه إلى القيام بالسرقة ، بل وينظم لهم العملية شخصيا ، ثم يفاجئهم وهم يقومون بها ، ويقبض عليهم متلبسين بالجريمة ويقتلهم ، لكى يرى فيه شعبه الغيور العالم بالغيب ، ويستخدم الخدع والحيل وأشياء أخرى يقتنع بها غوغاء الناس ، ويتحدثون عنها ، ويحكمون بألوهيته ومعجزاته .

ويقص علينا **ابن زولاق** المؤرخ حكاية ننقلها بنصها ، وهى : « ونادى فى الناس ألا يغلق أحد بابه ولا حانوته ، وأصبح الناس يستغيثون ، وأحضر صنما كان يسمى عنده أبا الهول ، فكان كل من ضاع له شىء يجلس بين يديه ويقول له : يا أبا الهول ! ضاع كذا وكذا ، فيقول شخص داخل الصنم ، ما ضاع منك أخذه فلان ووضعه فى المكان الذى يقول عليه الصنم ، فيحضر لصاحبه ، ثم ما زال على ذلك حتى قرر جميع ما ضاع لأربابه . ثم صلب اللصوص وعادت الناس فى أمن ينامون فى بيوتهم ، وأبوابهم مفتوحة ، وحوانيتهم كذلك ، ولم يسرق لهم شىء ، حتى إذا وقع من أحد درهم يبقى فى مكانه ، لا يجسر أحد أن يأخذه حتى يأتى إليه صاحبه فيأخذه ، ثم ينادى : رحم الله من اعتبر بغيره » .

والمثال الثانى أنه أمر فى مناسبة ما بمنع الرعية من العمل نهارا فأطاعوه ، وأخذت القاهرة مشهد مدينة غريبة تصبح صحراء مجدبة إذا ما سطعت الشمس ، فإذا غربت أصبحت تضج بالجماهير ، تعمل فى نشاط كخلية نحل طوال الليل على ضوء المصابيح الصناعية .

وكان يختار وزراءه من بين عامة الناس فى المقاطعات المختلفة من دولته ، تختلف ميولهم ، ولا تناسق بين اتجاهاتهم ،تبعا للحالة التى تسيطر عليه لحظة الاختيار ، فكان رئيس وزرائه من المسيحيين مرة ، وعهد بالإدارة كلها إلى المسيحيين ، وأحاط نفسه بالمسلمين واليهود مرة أخرى ، وآونة يسرق كنائس المسيحيين ، ويهدم الأديرة ، ويطرد أو يقتل عباد الصليب ، ثم يبلغ به الأمر فى النهاية ، حين يكون « رائق المزاج » أن يعيد بناء ما هدمه ، وأن يرد من الكنوز ما سرقه ، وسمح لأجراس كنائسهم بأن تدق ، وبأن يخرجوا إلى الشارع فى عروض دينية ، وزاد فقبلهم فى مجلس شورته إلى جانب

البيزنطيين والمغاربة الذين كان يتكون منهم حرسه الملكى ، وصنع الشىء نفسه مع اليهود ، ومع المسلمين من شتى المذاهب الدينية .

وكان على التعليم أيضا أن يعانى من تأثير أهوائه الشخصية المتقلبة ، السيئة النمو ، وأراد أن ينشىء دينا ، وأنشأه فعلا ، خليطا من أفكار مختلفة ، تشبه العقائد المشرقية ، تلك التى تقول بتناسخ الأرواح ، ومذاهب أخرى من الفلسفة الإغريقية ، وشىء من الأفكار اليهودية والمسيحية تمتزج كلها على قاعدة إسلامية عريضة ، [وتضم دار الكتب المصرية مخطوطة فى ٦٤ ورقة ، وتشتمل على عشرين رسالة ، وتحمل عنوان : **رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بدعوته** ، ونعرف منها ما كان يدعيه لنفسه من صفات الألوهية ، وتدل اللهجة التى كتبت بها ، على ما كان يتوقعه الحاكم من مقاومة الأهلين ، ومعارضة الجانب الأعظم من المصريين] .

● **دار الحكمة ودار العلم :**

لكى يستطيع الحاكم بأمر الله أن يعلم رعاياه هذه الشريعة الدينية الجديدة أقام ندوات عامة فى قصره نفسه ، يهرع إليها العديد من جمهرة المبتدئين ، وصنع أكثر من هذا أيضا ، ففتح فى القاهرة مجمعا أو جامعة حملت اسم **دار الحكمة** سنة ٣٩٥هـ ، وتدرس العقيدة الرمزية لفرقته ، والتحق بها عدد من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين والأطباء .

وألحق بدار الحكمة مكتبة حملت اسم **دار العلم** ، ونقلت إليها الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ، ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك ، وجعل فيها ما يحتاج إليه الناس من الأقلام والورق والمحابر ، وأقيم لها قوام وخدام وفراشون وغيرهم ، رسموا بخدمتها ، وأجرى على من فيها من الخدام والفقهاء الأرزاق السنية ، وأبيح دخولها لسائر الناس فوفدوا إليها على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من يحضر ليقرأ ، أو لينسخ ، أو ليتعلم[1] .

وأباح **الحاكم** المناظرة بين المترددين على دار الحكمة ، فكانوا يعقدون الاجتماعات ، وتقوم بينهم المناظرات ، وفى بعض الحالات يفضى بهم الأمر إلى الجدل والخصام .

---

(١) دى ساسى ، عرض لديانة الدروز ، جـ ١ ص ٢٨٠ ، ٤٢٥ ، وغيرها .

[وظلت **دار العلم** قائمة ، إلى أن أغلقها الملك الأفضل ، وزير الخليفة الآمر ، عام ٥١٣هـ = ١١١٩م ، على أثر ما اتصل به من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة باسم البديعية ، التى يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة ، الشافعى والمالكى والحنفى ، يترددان على المكتبة ، وأن كثيرين من الناس أصغوا إليهما ، واعتنقوا مذهب السنة ، ومن بين الذين اعتنقوه شيخان من الأساتذة المحنكين من رجال القصر الفاطمى ، فاتخذ الأفضل من الحادثة ذريعة لإلغاء تلك الدار . **أما دار الحكمة** فظلت قائمة حتى مجىء الأيوبيين][1].

● **مرصد الحاكم بأمر الله :**

وفى عام ٤٠٣هـ تحمس الحاكم للفلك ، وأمر بانشاء مرصد فى سفح المقطم ، عرف باسم **المرصد الحاكمى** ، وعين مفتشين لمراقبة العمل هناك ، [وكثيرا ما كان يركب إليه قبل الفجر على حماره الأشهب ، وقد أخبر أحدهم المؤرخ المعاصر له **ابن حماد** أنه رأى آلة نحاسية تشبه الإسطرلاب أقامها الحاكم على برجين ، وأنه قاس عليها بعض علامات البروج فوجدها ثلاثة أشبار] . ولم يكد العمل يشرف على النهاية حتى أصدر أمرا بوقفه ، وظل المشروع ناقصا دون إكمال .

ولم تقف القضية عند هذا الحد ، وإنما قرر أيضا منع العلماء من ملاحظة النجوم ، أو حتى الكلام عن الفلك ، وأمر كل الفلكيين أن يخرجوا من مملكته ، وتقدم إليه الفلكيون التعساء مرعوبين يعرضون أن يتخلوا عن ممارسة مهنتهم راغبين وطائعين ، وحينئذ عفا الحكم عنهم ، وتركهم يعيشون فى مصر بهدوء[2] .

وذات يوم ندم على أنه نكل بفريق من شعبه ، فقد حكم بجلد رجل علنا لأنه ارتكب جريمة مرعبة ، كان يملك كتابا إسلاميا سنيا ، وهو كتاب الموطأ للإمام مالك ، فأراد أن يكفر عن خطيئته فأمر بإنشاء كلية علمية ، أحسن تأثيثها ، وأهداها مكتبته الثمينة ، واختار لها مديرين ، وأستاذين بها فى الوقت نفسه ، وكانا من كبار العلماء ، ومن فقهاء المذهب المالكى ، وأحدهما الرئيس **أبو بكر الأنطاكى** العالم الشهير ، وكلا الأستاذين كان موضع الإجلال والتقدير ، وأفسح لهما مكانا فى بلاطه ، وعين فى الكلية نفسها

---

(١) نص عبارة المؤلف : « ومع ذلك تغير تفكير هذا الطاغية بعد زمن ، وقضى على هذه المؤسسة ، دون أن تقوم لها فيما بعد قائمة أخرى » . ولما كانت هذه المعلومة تجافى التاريخ ، فقد ذكرت الحقيقة ، على ما رواها المؤرخون ، بدلا من عبارته . « المترجم » .

(٢) دى ساسى ، الدروز ، جـ ص ٣٦٩ .

فقهاء آخرين ، وأساتذة فى العلوم الدينية يدرسون أشهر كتب المذهب المالكى ، ولكن هذه الاتجاهات الطبية لم تدم غير وقت قصير ، وقبل أن تمضى أربعة أعوام على هذه الكلية حلت ، وأرسل الحاكم بأبى بكر الأنطاكى إلى الدار الآخرة ، وعادت العناية بالمساجد غضبا وكراهية للفقهاء المسلمين[1] .

باختصار كان فى القاهرة فى مطلع القرن الخامس الهجرى مؤسستان للتعليم العام ، أنعشتهما جذوة الحضارات القديمة ، ولم **تكن دار الحكمة** إلا تقليدا واضحا لمدرسة الإسكندرية ، وقد أتى هذا الخليط من الدراسات الفقهية والعقائدية إلى جانب الطب والفلك وغيرها على كل التقاليد الإسلامية فى التعليم ، وحتى ذلك الوقت لم يكونوا يفصلون بين الفلك والعلوم الطبيعية وبين علوم الشريعة فحسب ، وإنما يرون أن بينهما تعارضا وتناقضا ، ولكن الكلية العلمية التى جمعت فى رحابها الفقهاء وعلماء التوحيد من أتباع المذهب المالكى ، حافظت على نحو أفضل على التقاليد والعادات المتبعة فى مجال التربية الإسلامية ، غير أنها ، كأشياء أخرى للحاكم بأمر الله ، كانت زهرة يوم فحسب لم تتح لها الحياة لتثمر ، وجاءت مجرد تجربة بسيطة ، لا تعكس شيئا من الملامح التى نلتقى بها فى المدرسة النظامية منذ البداية .

ومع ذلك يجب أن ننظر إلى هذه الأحداث كوقائع منعزلة ، وعابرة ، وليست سوابق ، أو على الأقل ليست إشارات على اتجاهات جديدة فى نطاق الإسلام ، وربما لو وقفت عندها لما وجدت تأثيرات أخرى أشد قربا ، وتفسر لى بوضوح ، وعلى نحو لا ريب فيه ، مولد المدرسة النظامية ، فى المؤسسات الأكثر شعبية ، والأبعد قدما ، وعمقا ، وصوت الشعب ليس بمنأى عنها ، وعليها ليس دخيلا ، من تلك التى تعود إلى أهواء الطاغية الفاطمى فحسب .

● **ازدهار نيسابور :**

هذه المؤسسات ، وعنها انبثقت المدرسة النظامية فى بغداد بطريقة فورية ومباشرة ، كانت تزدهر فى عاصمة سياسية أخرى من عواصم المشرق ، حيث يغلى روح أكثر تفتحا لكل أنواع المعرفة ، وأرحب فكرا وتفكيرا ، وأعظم ثقافة ، وألمع عبقرية ، وأوضح

---

(١) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٣٤٧ – ٣٧٠ .

● يبدو أن هذه الكلية ، كما يفهم من كلام المؤلف غير دار الحكمة التى أشرنا إليها من قبل . « المترجم » .

حيوية ، وأشد لطفا ، من بين كل ما يمكن أن يزهو به الإسلام بين معتنقيه : إنه الروح الفارسى ، والمدينة نيسابور ، عاصمة كل خراسان حينذاك ، وفيها قبل خمسين عاما من إنشاء المدرسة النظامية ، دارت فى رأس ولى تصورات كانت الطراز الحى الذى جرى تقليده ، دون أدنى شك ، فى عاصمة الخلافة العباسية .

يمكن أن تقارن **نيسابور** فى نهاية القرن الرابع الهجرى من حيث السكان، أوالصناعة ، أو الثقافة ، لا مع **بغداد** الملاذ المقدس لأسرة بنى العباس القديمة ، وكانت أطلالا وفى دور الاحتضار ، وإنما مع **القاهرة** حيث بلاط الفاطميين اللامع ، وقد قامت نيسابور فى واد فسيح تغطيه الحدائق النضرة ، يرويها العديد من السواقى ، وبعضها يتدفق ماؤها تحت الأرض ، ليبقى نقيا ويمد السكان بما يحتاجون إليه ، وكانت يومها أوسع مساحة من القاهرة ، وأكثر سكانا من بغداد ، وأجمل من البصرة ، وتفوق القيروان فى رقعتها ، وتزهو بمسجدها الكبير ، وبزخارفها الرائعة ، وزينتها العربية المذهبة ، وأنفقوا عليها بفن وسخاء[1] ، وفيها ترن أصوات الخطباء البلغاء ، نافقة الأسواق ، عامرة بالفنادق والخانات ، إليها تشد الرحال من كل بلاد العالم الإسلامى والمسيحى والبوذى للحصول على الأقمشة القطنية التى تنسج فى مصانعها ، وعلى الحرير والجلود وغيرها[2] .

وأثنى **المقدسى** على خلواتها الفخيمة التى أقيمت هناك ليعيش فيها الصوفية المسلمون ، وأوقف الخيرون عليها أملاكا واسعة للإنفاق منها[3] ، وكان عدد الخطباء فيها يفوق ما يوجد منهم فى أى مكان آخر[4] ، وكذلك الأشخاص المتعلمون الذين يسكنون فيها . وكان كل فقيه وعالم توحيد فى المدينة أديبا ، ويبحثون ويناقشون فى حلقات الدرس ، وأخذ الشعب تحركه الخلافات بين الشيعة بحظه من الحوار فى المسائل العلمية والدينية[5] . وفاضت المدينة بأعداد من الناس ينتمون إلى العديد من الأديان والفرق ، إسلامية وغير إسلامية ، من الشيعة والكرامية[6] والمعتزلة[7] ، إلى جانب فرق أخرى من أهل السنة

---

(١) يمكن الرجوع فى هذه الأشياء إلى ملحق سفر نامه وسنشير إليه فيما بعد ، هامش رقم ٢٠ ، وفى أمكنة عديدة من المقدسى .

(٢) الإصطخرى ، ص ٢٥٥ .

(٣) المقدسى ، ص ٣٤٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣١٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٣٢٣ .

وغيرهم ، إلى آخرين يذهبون إلى النهاية تطرفا فى الجانبين ، أشخاص حكماء أو يمثلون فاجعة بالنسبة إلى الدين ، وأخيرا يؤكد المقدسى مدافعا أن الدراسة كانت مزدهرة فى المدينة ، وأن بها مدارس[1] .

● **المدارس فى نيسابور :**

هذه الجملة التى رواها لنا المقدسى الرحالة الشهير ، وهو يحدثنا عن انطباعاته وقد زار المدينة ، يمكن أن نفسر على أنحاء مختلفة ، أو أن تقبل إجمالا ، ولا تتصل بموضوعنا على التحديد ، كما حدث فى أمكنة أخرى كثيرة يشير فيها إلى مرو وبعض مدن المشرق ، ولكن لا يمكن الشك فى شواهد أخرى تشير نصا إلى وجود المدارس والكليات فى نيسابور قبل أن تولد المدرسة النظامية بنصف قرن تقريبا ، ويمكن أن نشير بالتحديد من بينها إلى ثلاثة :

● **مدرسة نيسابور** ، وأنشئت فى نهاية القرن الرابع الهجرى ، أو فى مطلع الخامس ، وعلى التأكيد قبل عام ٤٠٦هـ ، وأنشئت **لابن فورق الأصفهانى** ، عالم الكلام الشهير ، والداعية المرموق والأديب المتميز ، والنحوى المتعمق ، وقد دعاه أهل نيسابور إلى مدينتهم ، فى طريق عودته من الرحلة التى قام بها إلى الرى ، حيث أساء الهراطقة معاملته ، ويقول **ابن خلكان** إنهم كانوا يدرسون فى هذه المدرسة العلوم المختلفة ، وبخاصة التوحيد والفقه ، وأقيم فى جانب منها بيت لسكنى الأستاذ **ابن فورك** ، وكان رئيس المدرسة ، واشتهر بمؤلفاته فى الفقه والتوحيد والقراءات القرآنية وغيرها ، وذاعت كتبه فى كل العالم الإسلامى وكان إلى جانب هذا خطيبا مفوها ، ومجادلا مقتدرا ، وله مجادلات مشهورة مع الفرق الدينية الأخرى ، بلغت الذروة شدة وقوة مع الكرامية بخاصة ، ومات ابن فورك مسموما يعبق بأريج الولاية عام ٤٠٦هـ[2] .

لدينا ، إذن ، أخبار دقيقة عن أول مدرسة أقيمت فى نيسابور لعالم أشعرى ، للدفاع عن مذهب الأشاعرة ولتدريس الفقه وعلم التوحيد على المذهب الشافعى[3] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣١٤ .

(٢) ابن خلكان ، جـ ٢ ص ٢٧٩ – ٢٨٠ ، والقزوينى ، جـ ٢ ص ١٩٧ .

(٣) ولو أن ابن خلكان والقزوينى فى ترجمتهما لابن فورك لا يقولان بأنه من الشافعية أو غيرهم ، ولكن لا يمكن الشك فى أنه من علماء هذا المذهب ، لأننا نعرف كبار تلاميذه فى المدينة ، وأنهم من الشافعية ، مثل أبى القاسم القشيرى وآخرين . ابن خلكان ، جـ ١ ص ٥٣٧ .

● وأقيمت **المدرسة الثانية** للعالم الذى طبقت شهرته كل العراق وخراسان ، وأعنى به **أبا اسحاق الإسفرائينى** ، ويعرف باسم ركن الدين ، وكان يدرس علم الكلام تبعا لمذهب الأشاعرة ، والفقه والعقيدة على مذهب الشافعية ، وأحد الأساتذة الكبار الذين عمرت بهم المدينة ، ويمكن أن نذكر من بينهم : أبا الطيب ، وأبا القاسم القشيرى ، وأبا بكر البيهقى ، ونعرف عن هذا الأخير أن كان يقرىء فى المدرسة نفسها مؤلفات أستاذه ، وتضم باختصار العقائد ، والرد على الهراطقة .

وقد توفى **الإسفرائينى** فى نيسابور عام ٤١٨هـ ، ومن ثم يمكن الظن أنه أنشأ مدرسته فى مطلع القرن الخامس الهجرى ، أى قبل موته ، وقبل قيام المدرسة النظامية فى بغداد بأربعين عاما على وجه التقريب .

● أما **المدرسة الثالثة** فقد روى لنا أخبارها الرحالة الفارسى الشهير ناصرى خسرو ، فى الرواية التى تركها لنا عن رحلاته فى المشرق ، وقام بها فى مطلع الثلث الثانى من القرن الخامس الهجرى ، يقول : « نيسابور محل إقامة عاهل العصر (عام ١٠٤٦م) السلطان طغرل بك شقيق محمد ، وقد أمر السلطان بأن تقام مدرسة فى هذه المدينة ، قرب سوق السراجين ، وكان العمل يجرى بها حينئذ »[1] .

ومن خلال الأخبار التى أوردها شهاد بأعينهم ، ورأوا الأحداث بأشخاصهم ، نعرف أكيدا أن هذه المدرسة جاءت تالية للمدرستين اللتين أشرنا إليهما من قبل ، وتسبق كلها المدرسة النظامية فى بغداد بأربعة ،أو خمسة عشر عاما .

والنتيجة التى انتهينا إليها أن **نيسابور** بدأت عادة إنشاء المؤسسات الملكية للتعليم العالى ، لتدريس العقائد والتوحيد والفقه وغيرها ، قبل أن يوحى **أبو سعيد** الصوفى إلى نظام الملك بفكرة إنشاء مدرسة بغداد .

ومن جهة أخرى لم تجىء المدرسة النظامية فى بغداد وحيدة وإنما صحبها فى الوقت نفسه قيام مدارس أخرى أسسها الوزير الفارسى فى عدد من مدن الإمبراطورية[2] ، أخوة

---

(١) انظر سفر نامه ، وهى رحلة قام بها ناصر خسرو فى سورية وفلسطين ومصر والجزيرة العربية ، فى أعوام ٤٣٧ - ٤٤٤ (١٠٣٥ - ١٠٤٢) ترجمة وتعليق شارل شفيه ، باريس ١٨٨١م .

(٢) ويقول ابن الأثير أن نظام الملك أمر بإنشاء عدد من المدارس فى كل المدن والأقاليم ، وخصها بقدر كبير من دخل الدولة ١٤١/١٠ .

توائم لتلك ، ولها نفس طبيعتها ، لأنها تخصصت أيضا فى تدريس الفقه والتوحيد طبقا للمذهب الشافعى ، وتحمل الاسم نفسه ، فأنشئت المدرسة النظامية فى **نيسابور**[1] ، والنظامية فى **الحيرة**[2] والنظامية فى أصفهان[3] والنظامية فى مرو[4] ، والنظامية فى الموصل[5] ، وحتى ربما المدرسة النظامية فى طهر[6] ، مدينة هذه تقع فى أقاصى الشمال على مقربة من حدود سيبيريا تقريبا .

وكلهن بنات مدرسة نيسابور ، ونستنتج ذلك من أدلة واضحة تحيط بأصل المدرسة النظامية فى بغداد ، والتى يمكن اعتبارها الأخت الكبرى بينهن .

وطبقا لما أخبرنا به **القزوينى** ، فإن فكرة إنشاء المدرسة النظامية فى بغداد طرأت على ذهن **نظام الملك** ، وهو فى مدينة نيسابور ، فعندما دخل المدينة مر بباب أحد المساجد ، ورأى مجموعة من طلاب الفقه وعلم الكلام ، فقراء وفى ملابس رثة ، لم يحيوه ، ولم يقدموا له أيا من فروض الاحترام عندما مر بهم ، فتعجب من هذا ، وسأل وزير نظام الملك عمن يكون هؤلاء ، فأجابه الوزير : أنهم قوم على قدر كبير من الذكاء العقلى ، ولكن تنقصهم الثروة وما يعينهم على الحياة المريحة فى هذا العالم ، وملابسهم التى يرتدونها تنبىء عن فقرهم . وعرف نظام الملك أن كلماته مست شغاف قلب الملك ، واستمالته إلى جانب هؤلاء الطلاب الفقراء ، فأضاف : وإذا سمح لى السلطان يمكن أن تقيم لهم مبنى تزوده بما هو ضرورى لكى يعيشوا فيه ، ومن ثم يمكن أن ينصرفوا كلية إلى الدرس والصلاة ، والدعاة للسلطان بالصحة وطول العمر ، وسوف يصنعون ذلك بنفس رضية . وأظهر السلطان موافقته ، واستغل نظام الملك استعداد السلطان وقبوله الفكرة فأصدر أمره بأن تقام المدارس فى كل أنحاء الدولة ... وكان هو الذى أدخل هذه العادة المحمودة ![7] .

---

(١) ابن خلكان ، ٢٤٩/٢ ، وياقوت ٥٦١/٣ ، والقزوينى ٢٣٦/٢ .

(٢) ابن خلكان ٢٤٩/٢ ، وابن الأثير ١٤٨/٢ .

(٣) ابن الأثير ٣٥/١٠ ، ٢٥١ ، والقزوينى ٢٧٦/٢ ، وابن خلكان ٨٣/١ .

(٤) ياقوت ٣٢٢/٤ و٥٠٩ .

(٥) ابن الأثير ٤٠٥/٢ .

(٦) القزوينى ٤٠٥/٢ .

(٧) القزوينى ، جـ ٢ ص ٢٧٥ – ٢٧٦ .

● **شواهد على سبق نيسابور :**

أما أن النظامية ، وهى النموذج الذى سارت على نهجه كل المدارس التى جاءت بعدها ، كان عمل أشخاص فارسيين ، ومن رجال تعلموا فى مدرسة نيسابور بخاصة ، فشواهدنا عليه بينة ، ويمكن ملاحظتها من الوقائع التالية :

● كان بيت المال الإدارة الفارسية مصدر الأموال التى استخدمت فى البناء ، وليس خزانة العباسية فى بغداد[١] .

● صاحب المدرسة العلمانى ، ومؤسسها ، الوزير **نظام الملك** ، فى مدينة طوس أصلا ، إحدى المدن الصغيرة القريبة من نيسابور[٢] .

● وكبير المدرسة الدينى ، الذى أوحى بالخطة ، ونفذ البناء ، ونظم المدرسة ، أبو العباس الصوفى ، شيخ الطريقة ، من نيسابور أصلا[٣] .

● أشهر الأساتذة وأميزهم فى الجامعة ، فى أروع فترة من حياتها ، وازدهرت خلال القرن الأول لتأسيسها ، جاءوا من فارس ، ومن مدارس نيسابور ، ويمكن أن نذكر بعض الأسماء : كان **أبو اسحاق الشيرازى** ، وعينه **نظام الملك** أول رئيس لها لكى يوجه الدراسة فيها ، فارسيا من شيراز[٤] ، **وأبو سعد المتاولى** وخلف سابقه ، وكان بغداديًا فرضه الطلاب ، من نيسابور أيضا[٥] ، وفيها تولى التدريس **الإمام الغزالى** الشهير ، وتعدل شهرته فى العالم الإسلامى شهرة **توماس الإكوينى** فى العالم الغربى ومن أشهر العلماء بين المسلمين ، ووجه التعليم فى المدرسة النظامية فى بغداد زمنا ، من قرية متواضعة فى ضواحى نيسابور ، وتلميذا للعلامة الذائع الصيت : **أمام الحرمين أبو المعالى يوسف الجوينى** ، أول أستاذ فى المدرسة النظامية فى نيسابور[٦] . **وأحمد أخو الإمام** الغزالى وخلفه فى رئاسة المدرسة النظامية البغدادية ، تعلم فى نيسابور ، **وأبو الحسن** الطبرى ،

---

(١) سراج الملوك للطرطوشى ، ص ١٢٨ - ١٢٩ . والقزوينى ٢/٢٧٥ .
(٢) ابن خلكان ١/٢٥٥ .
(٣) القزوينى ٢/٢٤١ ، وابن الأثير ١٠/١٠٥ .
(٤) ابن خلكان ١/٦ .
(٥) ابن خلكان ٢/٢٤٨ ، والقزوينى ٢/٢٣٦ .
(٦) ابن خلكان ١/٤٩٦ .

ويعرف باسم **الكيا الهرسى** ، وخلف الغزاليين ، درس فى نيسابور ، وكان مثل هذين تلميذا لإمام الحرمين ، الأستاذ فى نظامية نيسابور على ما أشرنا[1] ، ومئات غير هؤلاء .

وباختصار فإن شهرة المدرسة النظامية فى بغداد تعود إلى مكانة نيسابور العلمية ، وكانت تلك فى أعصرها الأولى فرعا لهذه ، وصدى لها ، لأنهم وضعوا على رأس النظامية فى نيسابور أمام الحرمين رئيسا للتعليم فيها ،وكان أشهر الأساتذة على أيامه[2] ، وعلى يديه تخرج ألمع الأساتذة فى بغداد فى علوم العقيدة والأخلاق .

وإذا لم يكن ما قلت كافيا وزيادة ، يمكن أن نضيف إليه أسماء كبار الدعاة من رجال الطرق الصوفية ، وكانوا يضطلعون بإلقاء المحاضرات العامة فى المدرسة نفسها ، وكان أبو نصر **القشيرى** بن أبى القاسم القشيرى واعظ خراسان المصقع الواعظ الأول فى المدرسة النظامية فى بغداد وجاءها بدعوة من **الشيرازى** كبير علمائها ، وتعلم القشيرى فى مدرسة نيسابور على نحو ما أشرنا من قبل ، وتلقى العلم على إمام الحرمين فيها ، وجاءها وعاظ آخرون من نيسابور[3] .

وألقى **الهمدانى** الشهير دروسه فى المدرسة النظامية فى بغداد ، وكان قبلها رئيس خلوة فى خراسان ، حيث تنتشر طريقته ، ولها أتباع كثيرون[4] . وفيها عمل شرف الدين **الشهرستانى** ، الواعظ الشهير ، وهو من أصل فارسى ، ودرس فى نيسابور ، وغيرهم كثير[5] .

ولكن ذلك لا يعنى أن التعليم فى المدرسة النظامية فى بغداد كان على النمط نفسه الذى يجرى عليه فى مدارس نيسابور مذاهب وطرائق فقد كانت هذه تسير على المذهب الشافعى فى دراستها فقها وعقائد ، على حين كان يتولى التدريس فى نظامية بغداد الحنابلة من رجال البلاط فى خلافة بنى العباس ، ويقول المقدسى : إن المذهب الحنبلى كان السائد فى بغداد ، ومنهم كانت حاشية الخليفة[6] .

---

(١) ابن خلكان ٥٨٧/١ .

(٢) ابن خلكان ، ٥٨٧/١

(٣) المصدر السابق ، ٥١٤/١ .

(٤) المصدر السابق ٥٣٨/١ .

(٥) المصدر نفسه ٤٢٥/٣ .

(٦) ياقوت ٣٤٣/٣/٣ . ولم نتحدث عن أولئك الذين عملوا فى المدرسة فى أيامها الأولى كوعاظ ، ولكن معلوماتنا عنهم محدودة .

وفيما يتصل بالعقيدة كانت مدرسة نيسابور ، فيما يبدو ، تتبع المذهب الأشعرى فى علم التوحيد ، وبخاصة مذهب إمام الحرمين ، وفى مجال التصوف تحتذى خطى الطرق الدينية الفارسية ، وكلاهما يعتبره الحنابلة فى بغداد هرطقة ، وجاء وقت لم تكن فيه المدارس البغدادية تدرس غير المختصرات التى كتبها أساتذة مدرسة نيسابور فى علم الكلام ، ويمكن أن يقال إنها كانت تكون مادة الدراسة الأولى . وإلى ذلك العصر يشير ابن خلدون حين يقول : كل الذين ألفوا فى أصول الفقه ، وتميزوا فى المذهب الأشعرى فى العالم الإسلامى كانوا من الفرس[1] .

ولم يكن ما يتصل بالمدرسة النظامية حالة منعزلة ، ولا التأثير الفارسى فى بلاط بنى العباس شيئا جديدا فى ذلك الوقت ، فمنذ أيام الإسلام الأولى تحضر العرب باختلاطهم بالفرس والبيزنطيين[2] .

ولكن كيف ظهرت فكرة بناء المدارس فى نيسابور ؟ يجب أن أصرح ، ونحن نعود إلى نقطة البحث عن الأصول الأولى للمدارس الإسلامية ، أن خطاها ليست مؤكدة ، وأن الشواهد أقل فى كل مرة ، فهل وصلنا إلى المرحلة التى تختفى فيها الحقيقة تحت الأرض ، وراء صمت هادف قصده الذين أنشأوها ، لأن تقليد العدو ، أو المخالف فى الجنس ، أمر قلما نعترف به ؟ .

فلنحاول أن نلتقط الخيط .

● **فرقة الكرامية :**

تصف لنا الأخبار التى وصلتنا عن ذلك الداعية الأشعرى الملتهب حماسة ، **ابن فورك** ، ومن أجله أسست المدرسة الأولى فى نيسابور وأشرنا إليها من قبل ، بأنه أمضى حياته يتنقل من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية يجادل الهراطقة وأصحاب المذاهب المخالفة ، ويوقظ حمية النائمين والغافلين ، وإحدى الفرق التى إلتقى معها فى موقعة أكثر التهابا ، وأشد إثارة ، كان الكرامية فمن هم هؤلاء ؟ .

يكفى أن نعرف فيما يتصل بموضوعنا الآن أنهم إحدى الفرق الإسلامية التى تكونت فى القرن الرابع الهجرى ، وتمتعت بهيبة كبيرة ، وتأصلت فى فرغانة وخراسان ،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، الترجمة الفرنسية ، طبعة دى سلان ، جـ ٣ ص ٢٩٦ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤١٤ ، جـ ٢ ص ٢٧٤ .

وجرجان ، وطبرستان ، وما وراء النهر ، وغزنة ، ومدن وبلاد أخرى فى الإمبراطورية الإسلامية ، التى تجاور حدود الهند ، و على مقربة من بلاد الترك[1] . وقد شدت إليهم تقواهم الملتهبة ، ومظهرهم المتواضع ، وفقرهم الشديد ، إعجاب الجانب الأكبر من الناس ، وتميزوا بتشيعهم وتعصبهم الدينى ، وكان هذا يدفعهم إلى الجدل والكفاح المستمر مع الفرق الأخرى . واتخذ هذا الحوار شكل صراع دموى فى جرجان[2] ، والتهب فى غزنة ، وأخذ شكلا حادا فى نيسابور نفسها[3] .

وتميزت هذه الفرقة الإسلامية بخاصية ملحوظة ، إذ كان الكثير من أتباعها يعيشون حياة زاهدة ، ويقيمون فى خلوات شيدت لذلك ، وفى نهاية القرن الرابع الهجرى ، وهو عصر يهمنا معرفته ، كانوا يملكون زوايا لا تحصى فى فرغانة ، وهيطل وسمرقند ، وديار بكر ، وجرجان ، وطبرستان ، وحتى فى بيت المقدس ، وفى القاهرة ، حيث يسكنون من الفسطاط حيا خاصا بهم فيما يبدو[4] . وفى هذه الزوايا تعودوا أن تكون لهم مدارسهم ، ويدرسون فيها العقائد بصفة خاصة ، ويذكر **الرحالة المقدسى** ، **وأمدنا بمعلومات وفيرة عنهم** ، **أنه قرأ بعض كتب** الكرامية فى مدينة نيسابور نفسها[5] ، وأن بعض مدارس الكرامية قامت فى المدينة ، طبقا لما نستنتجه من شهادة المؤرخ الشهير **ابن الأثير** ، فهو يمدنا بمعلومات تؤكد ، فيما نعتقد ، بوجود مدارس للكرامية فى نيسابور فى أيام خلت ، وذلك عندما يشير إلى الأحداث التى جرت عام ٤٨٨هـ ، فهو يذكر أن اصطداما عنيفا وقع فى المدينة بين الكرامية من جانب ، والشافعية والأحناف من جانب آخر ، وأدى هذا الاصطدام الدموى إلى مصرع عدد كبير من الجانبين المتصارعين ، ولكن النصر كان حليف أهل السنة ممثلين فى الشافعية والأحناف ، وخلال موجة الغضب قام هؤلاء بتدمير مدارس الكرامية[6] .

ألا يمكن إذن أن نفترض أن المدرسة التى أسست **لابن فورك** المجادل ، وقاتل بعنف ضد الكرامية ، أقيمت على هيئة المدارس التى كانت قائمة فى زوايا أعدائهم ؟ . ذلك

---

(١) المقدسى ، ص ٣٧ ، ٣٢٣ ، ٣٥٦ وغيرها .

(٢) نفس المصدر ، ٣٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٣٦ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٢ ، ٣٣٢ ، ٣٦٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٧ ، ١٧٩ .

(٦) ابن الأثير ، ١٠/١٧١ .

شيء واضح فيما أرى ويتجلى فى طابع المدارس السنية ، وكان الصوفية يوجهونها ، ويمدونها بالوعاظ « والفقراء إلى الله تعالى » ، وبعد كل هذا فإن عقائد الكرامية دخلت فى مواد التعليم التى كانت تدرس للطلاب فى المدرسة النظامية فى بغداد ، للإفادة منها على الأقل ، ولو سلبيا ، فى نقدها ووقوفها ضد الفلاسفة ، **وكان الإمام الغزالى** يقوم على تدريسها ، واستخدم ذلك فى كتابه « تهافت الفلاسفة »[1] . وفى ضوء ما سبق يمكن أن نفسر كيف أن أهل السنة كانت لهم مصلحة فى إخفاء تقليدهم لنظم التعليم عند الفرق التى رموها بالزندقة والثورة .

ويبقى السؤال قائما : من أين جاءت مدارس الكرامية ؟ . عندما نصل إلى هذه النقطة من البحث يصبح من الصعب علينا أن نجمل فى كلمات قليلة ما هو كاف للإقناع ، لأن من الضرورى أن نقف طويلا عند الأخبار الدقيقة التى وردت عن المؤسسات التعليمية التى احتفظت بها تلك المناطق ، لا فى مدينة نيسابور فحسب ، ولا حتى فى مدينة خراسان وحدها ، لأن تأثير الكرامية شغل مساحة واسعة جدا ، وامتد إلى مناطق عديدة ، وليس بوسعى أن أحدد ، ولو ظنا ، متى ، وأين قد أقاموا مدارسهم هذه فى زواياهم ، ولكن إذا تتبعنا استخدام كلمة **مدرسة ومدرس** ، وهى مشتقة من الفعل درس ، وجدنا أنها ألفاظ ترتبط بالفكرة الجديدة ، ولا تشير إلى ما هو تقليدى فى معاهد الإسلام القديمة ، **وكان الأستاذ فيها يحمل اسم مقرىء ، إذا كان يدرس القرآن ، ومحدث** إذا كان يعلم السنة ، أو يطلق عليه اسم أكثر شمولا وهو **شيخ أو أستاذ** ، وهذه كلمة فارسية ، أو معلم[2] . أما كلمة مدرس فكانت تطلق على الأستاذ الذى يدرس الفقه أو العقيدة ، ويدعم ما يقول بشواهد وأسباب عقلية أو فلسفية فى درسه ، على نحو ما كان يحدث فى مدارس المشرق المسيحية واليهودية ، وفيها كان يدرسون الفلسفة الإغريقية . وفيما أرى فإن اسم مدرسة كان يطلق على معنى محدد ، وهو ما تعنيه الكلمة الإغريقية

---

(١) الغزالى ، تهافت الفلاسفة ، ص ٥ ، طبعة بولاق .

(٢) من اللافت للنظر أننى كنت ضمن بعثة من أساتذة الجامعات المصرية ، أرسلتها الحكومة المصرية عام ١٩٦٨ إلى الجزائر، لتعريب التعليم فى جامعات الجزائر، وكان فرنسيا ، بناء على طلب حكومة الجزائر ، ووقع على عاتقى تعريب شهادة الأدب المقارن فى قسم اللغة العربية ، فى كلية الآداب بجامعة الجزائر العاصمة ، ولفت نظرى من اليوم الأول أن كلمة درس ومدرس لا وجود لهما فى معجم الناس ، فى الجامعة ، أو خارجها ، إلا إذا كانوا قد تعلموا فى المشرق أو أقاموا فيه مدة طويلة ، أما الفعل الذائع بينهم فهو : قرأ ، فالطالب يقرأ ، والأستاذ يقرىء ، ويستخدمان للكتاب فى القرية ، والكلية فى الجامعة على السواء . بقى أن أسجل للتاريخ ، أن كل الذين كانوا يقومون بمهمة التعريب بدءا بمدرس الابتدائى وانتهاء بأستاذ الجامعة كانوا يقبضون رواتبهم من مصر . « المترجم » .

Escola واحتفظ بها النسطوريون للمنظمات التعليمية فى أديرتهم ، وبالنسبة إلى العصر الذى سبق انشاء مدارس نيسابور مباشرة ، أو عاصرها ، لدينا شواهد عديدة لا يمكن إنكارها على وجود المدارس المسيحية فى المشرق ، ويمكن العودة من هذا إلى نص أبى الفرج الملطى مثلا ، وهو مؤرخ عربى من النسطوريين ، فى كتابه « مختصر تاريخ الدول » ، حيث يذكر أن النسطورى **متى بن يونس** ، أشهر علماء المنطق على أيامه ، ولمع فى بغداد على أيام خلافة الراضى ، أعوام ٣٢٠ – ٣٣٠هـ ، تعلم فى إحدى مدارس الرهبان المسيحيين اليعقوبيين ، واستخدم فى تعبيره الكلمة الإغريقية Escola[1] ومن جانب آخر ، فإن حياة الزوايا الإسلامية ، وقواعد الطرق الصوفية ، تشبه – طبقا لكل الظواهر – القواعد المسيحية للمذاهب الشرقية ، ومن ثم يمكن أن نجمع حلقة إلى حلقة ، فى سلسلة تربط كل التقاليد .

* * *

ونمضى مع الأمر لنقف عند البذرة الأولى لكل منظمات التعليم ، ولو أن الطريق فيها يمضى عبر طرق ملتوية ، وخفية ، ولا تعلو إلى السطح دائما ، وتمثل فى ذلك الشعب السامى الذى بلغ هذا القدر من سمو الفكر بقوة العقل ، والتصويت الحر ، وجمع بين أشد الفرق تعارضا ، وأقوى علماء العقائد اختلافا ، وبين كل الأديان التى تمارسها أرقى الشعوب حضارة على وجه البسيطة ، وكل هؤلاء يجدون أنفسهم فى حاجة لأن يهرعوا إليه ليفسر لهم عقائدهم ، وتبقى الفلسفة الإغريقية فى العمق : مددا لا ينفد ، وضوءا لا يخمد ، وتلك هى فضيلة العلم الجاد النزيه .

فى عبادة هذا العلم بدأ الرجل الشهير ، قدوة الأساتذة ، ولى شرف أن أهدى إليه هذه الدراسة ، وليست إلا « عينة » كيمائية ، وصورة جانبية ، لإحساس أكبر عمقا وجلالا وفهما ، وفيه أقيم الأمل على طهارتى العلمية ، إذا استطعت بفضل الله أن أحقق يوما شيئا منها ، ولقد انتويت منذ البدء ، وحملت نيتى فى أعماقى ، على أن أقدمه شاهدا على عرفانى وتقديرى للأستاذ الذى تهدى إليه هذه الدراسات .

---

(١) طبعة بيروت ، ص ٢٥٨ .